صناعة الأمل

لمحات من سيرة (المعمّر) المرحوم

الحاج إبراهيم بن أحمد بن محمد بن يوسف بن قمبر

المتوفى يوم الجمعة الموافق 13 / 7 / 2012م

بقلم ابنه عبد الإله إبراهيم أحمد قمبر

الإهداء

إلى روح والدي الغالي أهدي هذه الباقة

رحم الله من قرأ الفاتحة
وأهدى ثوابها إلى روح الحاج إبراهيم بن قمبر
وأرواح المؤمنين والمؤمنات

النشأة والبيئة

الحاج إبراهيم بن أحمد بن محمد قمبر، هو ابن قرية النويدرات وأحد رجالاتها وغرسها الثابت، ولد عام ألف وتسعمائة وثلاث وعشرين للميلاد (1923م) - وفق ما هو مقيد في السجلات الرسمية - في منطقة فارسية، غير أنّ الشياع والتواتر بين أهالي القرية يؤكّدُ أنّ تاريخ الولادة أقدم ممّا هو مقيد عليه لدى وزارة الصحة بعشرين عامًا أو يزيدون؛ ذلك أن تاريخ التقييد الرسمي جاء متأخرًا بعد ولادتهم، فتمّ تسجيل تواريخَ تقديرية وفق مقياسِ نظر من يقيدهُ ونزولاً عند رغبة تخمينِ المسجل حينها. وينحدرُ الحاج إبراهيم بن أحمد من عائلة (آل قمبر) - التي كانت منطقة الفارسية موطنها الأصلي، ثم انقسمت العائلة إلى رفدين، الأول سكن في منطقة المعامير والآخر سكن في منطقة النويدرات. فأبوه هو الحاج أحمد بن محمد بن يوسف بن قمبر، العزيز في نفسه، الوجيه في منطقته، العاشق للعلماء والمحب لمعاشرتهم، الذي كان مضيافاً كادحًا يجتهدُ في نيل لقمة عيشه، وتسيير شؤونه.

يذكرُ لي "والدي الحاج إبراهيم" قصة خاتمة أبيه - التي كان يتمنى أن تكون خاتمته مثلها، ولكن لله الأمرُ من قبلُ ومن بعد - والذي وافتهُ المنيةُ بعد تأديته لصلاة المغرب، إذ توجه للقبلةِ جالسًا في هيئة النائمين المطمئنين، وبعد برهةٍ حضر أحد أصدقائه كعادته، وعند دخوله أقبلَ مسلماً فلم يسمع منه صوتاً، ولما شاهده وعاينهُ قال لوالدي: لقد "مات الحاج أحمد". وما دلهم على موته إلا صديقه.

للوالدِ المرحوم أخَوَان وأختان؛ أمّا الأخوان فهما خليصهُ الحاج قمبر (أبو سلمان، وعلي وحسين)، وفردانيهُ الحاج علي بن أحمد (أبو الشيخ الدكتور المرحوم جاسم، وجعفر وأحمد)، وأختان خليصتان هما: والدة (جعفر وإبراهيم ومكي وعبد علي خاتم)، ووالدة (الأستاذ علي قمبر "أبو عيسى"، والحاج يوسف قمبر "أبو حسين").

عاش الحاج إبراهيم بن أحمد في بيئة ذات مستوى معيشي متوسط حسب المعايير الاقتصادية أنذاك تمنحهُ الكفاف والاكتفاء، متخذًا من التمر والرطب والسمكِ والرز، أهم الأساسيات الغذائية للمعيشة والحياة. وعلى الرغم من توسط البيئة المادية إلا أنها كانت بيئة غنية بالقيم والمبادئ المستمدة من تعاليم ديننا الإسلامي الحنيف، ومن رسالة نبينا محمد (ص) وأهل بيته الطاهرين (ع)، حيث رباهُ أبواه تربية قائمة على المُثل الكريمة كالصدق والأمانة والشجاعة والوازع الديني والأخلاقي الذاتي.

عاش الحاج إبراهيم طفولة قصيرة في منطقة الفارسية، امتدت لأربع سنوات من ولادته، سكن في عرشانها وتنقل بين أزقتها، ثم تحول لاحقاً بصحبة أبيه إلى قرية النويدرات ليستوطنها صغيراً، بعد أحداثٍ مؤلمةٍ وقعت هناك.

النويدرات.. موطنُه الأصيل

ويمكنُ القولُ إنّ منطقة (فارسية) لم تكن ذات جذب للحاج إبراهيم إلا لما فيها من رائحة الأجداد وأصالة المنشأ وأحقية الاستملاك؛ ذلك أن طفولته الحقيقية كانت بين ربوع قرية النويدرات، تلك القرية التي كانت حين قدومه محدودة السكن جغرافيًا، طليعية الطموح والنهضة والعطاء، فكان أن عاش فيها شبابه ورجولته وشيخوخته، بكل ما في الحياة من تناقضات، بعد أن تزوج وهو في السابعة عشرة من عمره بابنة الحاج مكي غنوم "رحمهما الله". ومع كل ما سبق فإن منطقة فارسية لم تكن منطقة قابلة للحياة والديمومة بعد ما حلّ بها من خراب ودمار قهريٍ، أجبر من كان فيها على الرحيل والابتعاد.

أما موقع سكناهُ فكان أن استوطن جنب المسجد الوسطي (أو مسجد الحراب نسبة لما كان يحدثُ في ساحته من تشابيه وتجسيد لواقعة كربلاء الدامية في شهر محرم الحرام كما روى ذلك والدي) والمسمّى حالياً مسجد الشيخ أحمد، حيث امتلك قطعة من الأرض كان قد دفنها وردمها بيديه، ثمّ تمدد جهة الشرق أكثر ليكتمل الجزء الآخر من منزله في صورته الحالية، والذي كان يتخللهُ - حينها - ماءُ جارٍ (ساب) قادم من الشمال متجها نحوَ الجنوب.

ويعتبر (البرستج والعريش) هما ما عرفهُما الحاج إبراهيم كمنازلَ للسكن والاستقرار، كمثل الباقين من أهل قريتهِ التي لم تعرفْ بعدُ أي صورة من صور التطور العمراني الذي برز بعد ظهور العملاق الأسود (النفط)، وكان - رحمه الله - خبيرًا ماهراً بصناعة البرستج والعريش كمهارة يجيدها ولا يتكلُ فيها على أحد إلا الله سبحانه. ومن صور الحياة والسكنى التي اعتمدها المرحوم، أنه كان يضعن مع الضاعنين صيفًا في منطقة امتدادات بربورة جهة الجنوب استجمامًا؛ وذلك لما تحوي تلك المنطقة من النخيلِ والعيون، مايعني أنها أكثر هدوءاً وتخفيفاً لحرارة الصيف، ثمّ إذا عاود الشتاء طلته رجع لسكنه الثابت جنب مسجد الحراب.

الصلاةُ والقرآن.. سرّ النجاح واليقين

"عطيناك إياه لحم، رجعه إلينا عظم" إنها العبارة التي كان دائماً ما يرددها الحاج إبراهيم بن قمبر استشهاداً بها لتصحيح وضع دراسي خاطئ لدى أبنائه ومن حوله، وتبدأ حكاية هذه العبارة لما أخذه أبوه صغيراً إلى معلمه المرحوم الحاج حبيب بن حسن لتعلم الصلاة والقرآن، وعند وصوله "لمكان تعليم القرآن" توقف وقال لمعلمه: عطيناك إياه لحم، رجعه إلينا عظم"، عبارة تحتوي تصويراً لواقع التعليم، ودلالة معرفية لنظرة الأجداد للعلم، فالعلم لديهم يستحق (المعاناة والألم)، فما قيمة الإنسان مع الرخاء، إن كانت خاتمة ذلك الرخاءِ الجهلُ! فكان أن تعلم - رحمه الله - القرآن والصلاة في وقت قصير، ولم يجعل - الوالد المرحوم - علمهُ الذي تعلمه معطلاً أو مركوناً في زاوية من زوايا منزلهِ، بل وظفهُ وعمل به أداءً للصلوات وترتيلاً للقرآن، وزاوج بين ثنائيتي (العلم والعمل)، فكان سمته الصلاة في المسجد، قد اختار لهُ زاوية ثابتة يعرفُ بها على جانب المحراب لجاره المسجد، ملتزمًا بالحديث المأثور: "لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد"، ولو لا أن أقعدته إصابة وقعت لهُ عند زيارة بيت الله الحرام، لما ترك مراودة المسجدِ أو الحياد عنه. كما كان سمتهُ قراءة القرآن بعد صلاة الفجر وحتى شروق الشمس بصوت جهوريٍ مسموع، يحملُ بين طياته وأهدافه بعداً تربوياً وأخلاقيا، نستطعمهُ جيدا حين نستيقظ على وقعه وتراتيله، وخبرهُ من يحضرون للصلاة في مسجد الشيخ أحمد. واستمرّ رحمه الله يقرأ القرآن إخفاتا ومراوحة بين الظهر والعصر أحايين متعددة، تجعلهُ يختمُ القرآن أكثر من مرةٍ في العام الواحد. إنها محبة القرآن العظيم التي تغلغلت آياته داخله، فكان كثيراً مايردد ويقول: كل شيء أقرؤه وأسمعه أتملل منه، إلا قراءة القرآن ومصيبة الحسين (ع)، لا أملُّ منهما".

كما أنهُ - رحمه الله - دأب على قراءة القرآن في شهر رمضان طيلة حياته، بل حتى وقتٍ قليلٍ قبلَ وفاته، ومع ما كان يكابدهُ من ألم المرضِ ومعاناته، لم يستسلم له، وأبى إلا أن يعود ليأنس بسور القرآن وآياته، بل سعى في

كثير من الأحيان للسؤال عن تفاسير بعض الآيات عند أهل العلم والمختصين ممن يصادفهم ويلتقيهم.

وكان مجلسهُ - رحمه الله - أشبه بورشة عمل يتعلم فيها الأبناء والأحفاد، ومن ذلك نتذكرُ جيداً أنه كان معلمنا الأول في القرآن والصلاة، إذ عمد على تعليمنا الصلاة منذ الصغر في كلِّ يومٍ بإقبال وتنظيم شديدين، دون ملل أو كلل، متكئاً على الترغيب والترهيب! كما أن تعلمهُ القرآن الكريم ساعد على معرفته القراءة البسيطة والكتابة، ما نوّره من ظلمات الجهل فأعانهُ على تدوين ما يحتاجُ إلى تدوينه.

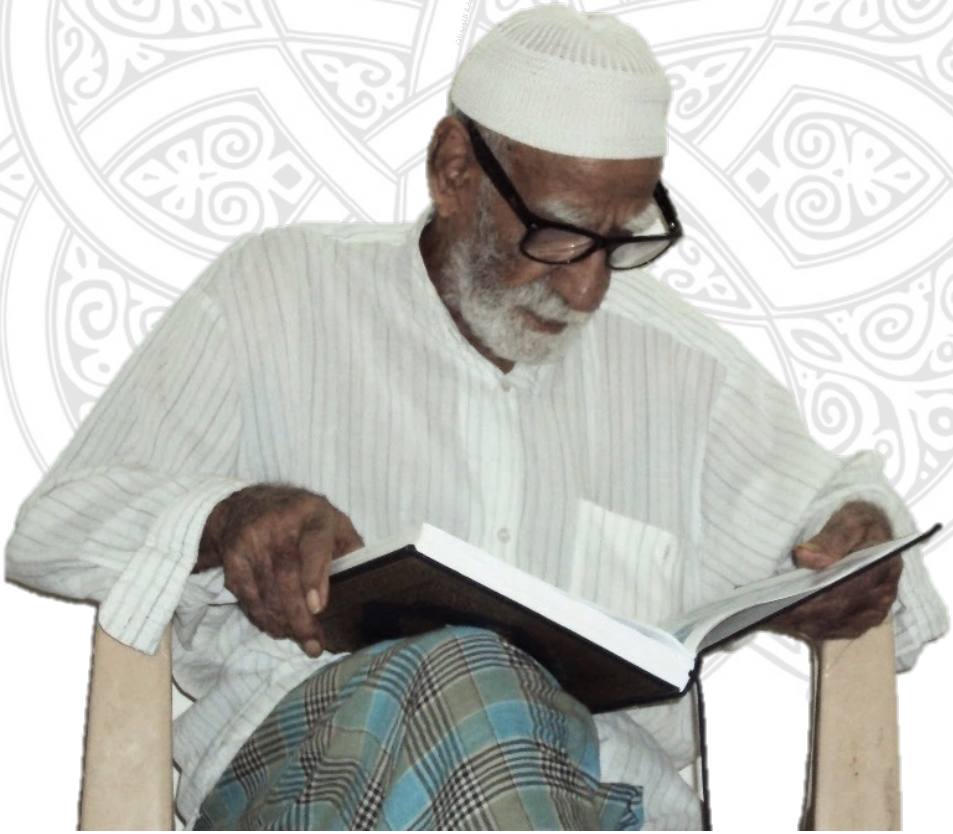

العملُ الجاد.. وصناعة المستقبل

أحبَّ الحاج إبراهيم العمل وثقافة الجدِّ منذ نعومة أظافره، فهو الكادح الهاوي لعمل يديه، إذ عمل بحاراً أول ماعمل في مشوار حياته، فخبر البحر وأهواله، وما يلمّ به ويعتريه، ثمّ بعدها اشترى له مزرعةً صغيرة فكان المزارعَ المحبَ

للنخيل والأشجار والطبيعة، فحرث الأرض وغرس بيديه الغرس، باحثاً عن الأمل المكتز بين أغصانها ووريقاتها، ثم وبعد التطور العمراني والنفطي افتتح له دُكاناً صغيراً يبيعُ فيه مواد غذائية ومعيشية كالمشروبات الغازية والعصائر، والكعك، ومواقد الغاز، وأعواد الثقاب وغيرها، إلا أن نشاطه التجاري توقفَ بسبب المنافسة الشديدة بين التجار الذين حوله وفق تعبيره! ثم وبعد اكتشاف النفط في خمسينات القرن المنصرم وإنشاء شركة بابكو عمل في مكتب التايم أوفيس - كما يسميهُ - مُستخدِماً، ثم أخذ يبحث داخلياً (في الشركة نفسها) عن مهنة مناسبةٍ أخرى؛ وذلك لاعتقاده أن عمله مستخدماً لا تطور فيه، إلى أن تقاعد من الشركة بعد أن عمل فيها ثلاثا وعشرين عامًا مع استمراره حينها في مزرعته التي باعها لاحقاً. فجمع خبراتٍ متعددة من أكثر المهن مشقة وعناءً، إلا أنها كانت أساساً لصناعة عقيدته المهنية ونضاله المعيشي ومصدرَ رزقه وعيشه.

النظامُ والوقت

إنّ من أهمِّ أسرار نجاحاته في فهم الحياة، وصحته البدنية التي رافقتهُ طِوال مسيرة عمرهِ، كان بسبب تنظيمه للوقتِ وإدراكه لأهميته، فلكل شيء عنده وقت ثابت وموعدُ محدد، فكان يلتزمُ بمواعيده وتعهداته على نفسه، فلا يؤخرُ صلاة أو غداءً أو نوماً ولا يقدمها إلا ما اضطر إليه، ولا يبعثرُ نفسهُ أو يشغلها بأيِّ وكل شيء فتتشعب نفسهُ وتضيعُ جهوده وطاقتهُ، فكان ينامُ في الساعة التاسعة مساءً، وربما تأخر أو تقدم قليلاً، ويستيقظُ ليؤدي صلاة الليل ونافلة الفجر وواجبها (هذا ماشاهدناهُ وما نقلهُ على لسانه حين يستأنسُ بمحادثنا)، ثمّ يقرأ القرآن إلى الشروق، حتى إذا أشرقت الشمس. أما نظامُ فطوره، فكان يبدأ مع السادسة والنصف إلى السابعة صباحًا (كمجال مرن)، حتى إذا انتهى تهيأ لافتتاح مجلسهِ صباحاً لوقت غدائهِ عند الساعة الحادية عشرة والربع ظهراً (قبل صلاة

الظهر) كعادةٍ تعودها من برنامج غداء شركة (نفط البحرين)، ثم يصلي ويخلدُ لنوم الظهيرة، وعند استيقاظه في الثالثة عصراً، يفتحُ مجلسهُ مرة أخرى. وبعد استقباله للضيوف والأصدقاء والزائرين، يستعدُّ لصلاة المغربِ، وبعد تأديتها، يجلسَ فوق كرسيه وطاولته، ينتظرُ عشاءه عند الساعة السابعة والنصف إلى الثامنة، وإن كان مرناً في أحايين تكفيه فردات تمر أو ما وجده، ثم يعاودُ برنامجه دواليك كما كان.

وكان إذا تأخرّ غداؤه - تحديداً - عن الوقت المخصص له قال: " غدانا اليوم قضاءً.. نويته قضاء"، كناية عن تأخير واجب والتزام أصيل - في قاموسه - لا يحيدُ عنه!

لقد كان الوالد - رحمه الله - على اطلاع ومتابعة بمتغيرات المواسم وتقلبات الجوّ صيفًا وشتاءً، وعلى دراية بالنجوم والرياح وما يصاحبها من تأثيراتٍ بيئية، من خلال اطّلاعه على كتب خاصةٍ بذلك، يرتبُ عليها برامجه وأنشطته، وهي (أي اطلاعه ومعرفته) كان مقدمة ضرورية من مقدماتِ مهنتيه السابقتين في البحر والزراعة.

كما أنهُ تعلق بـ "التقويم السنوي" الصادر - خصيصًا - من شركة نفط البحرين (بابكو) تعلقاً شديداً، أخذ ينتظرُ إصداره عاماً بعد عام؛ ليدون عليه مواعيده وبرامجهُ وأحداثه المختلفة، ما يدلل على أهمية الوقت والتأريخ في ذاكرته وثقافته الخاصة.

غِذاء صحي.. وبدنٌ سليم

ولأنّ الغِذاء الصحي هو ما عرفهُ وترعرع عليه منذ طفولته، كلازمة طبيعية من لوازم البيئة التي عاشها منذ أن كانت حياته بسيطة، فلم يكن لتغير الزمان، أثر على تغير رغباته (الغذائية الأصيلة)، على الرغم من الدحرجة السريعة للتطور النفطي وما ترتب عليه من أساليب جديدة في الحياة اليومية، فقد تمسك بالتمر وأكثرَ من أكله، وكان شريبًا للقهوة السوداء - المحمصة والمغلية لوقت أطول - المشهورة عند ضيوفه ومن عرفوه، والتي كان يطحنها بنفسه أحياناً، كأولِ خطوة صحية - كما يعتقدُ هو رحمه الله - وكان يقول دائما " كُل أي شي من التمر والحلاوة، واشرب من بعدها هذي القهوة... تقضي على حلاوته..!"، ومن باب الطرفة والتندر، فقد كان دائماً ما ينتقدُ القهوة ذات اللون الأصفر الباهت، حتى أصبح من يقدمُّ له قهوة بغير مواصفات قهوته، في مجلس كان أو محفلاً، يترددْ ويحادثْ صاحبه خوفاً من رفضها أو التعليقِ عليها، إلا أن المرحومَ يأخذها، ثم يعلق عليها مازحاً، ويشربها على مضض.

ولكل ذلك فإنه لم يتفاعل (كثيراً) مع الوجبات المستحدثةِ أو تلك المعلبة، بل كان يميل للثقافة الغذائية الطبيعية والأصيلة، كالرز مع السمك والتمر واللبن والأوراق الخضراء، وكنّا في أحايين كثيرة نخرجُ معه في صغرنا إلى منطقةِ بربورة لقلع نبات (الرجلة)، كما أنّه دائما ما يغلي جذر الفجل مع الكرفس ويشرب ماءها. ومن بناتِ أفكاره أن يضعَ رؤس ورق الفجل (الرويد) مع الطماطم ويخلطها مع البهارات المنوعة ويغليها ثم يشرب ماءها، ويقول إنّ كل ذلك " مفيد لتنظيف الكليتين"..، كان يقدسُ الغداء ويحب فيه وجبة (مرق السمك) حبًا جمًا، وإن كان لا يستكرهُ من أكل حلالٍ أبداً. وكان يضعُ الملح قبل أكلهِ على الطعامَ (وربما كان ذلك لخصوصية ذائقته)، ويشرب ماء اللولبِ لاعتقاده بوجودِ كمية مناسبة من الملح فيه، وإذا شرب من الماء العذبِ - الذي كانت سيارات الماء تحضرهُ من شركات تحلية المياه أنذاك - وضع داخله شيئاً من الملح، وكان

يقول دائماً: "إنّ ماء الشرب في القسم الذي كنتُ أعملُ فيه لدى شركة نفط البحرين، يوجدُ بجانبه علبة صغيرة تحتوي قطعا من الملح، يضعُ منها الموظفون الإنجليز في كاساتِ شربهم قطعة أو قطعتين حسب ما بذلوه من جهدٍ في عملهم، وافتقدوهُ من الأملاح"..!

ودائما ما يضع أمامهُ أثناء الغداء ماءً بارداً مثلجاً في الصيف، وأحيانا في الشتاء أيضاً. وكان يرفضُ المشروبات الغازية ويعاتب على من يجعلها ركنًا أساسياً ويكثر منها في وجبته، لاعتقاده بأنها تسببُ مرض السكري. كما كان يأكل الأوراق الخضراء كثيراً، كالخس والبقل والبربير والفجل (الرويد)، ويعتبرها مع الأعشاب الأخرى كالعشرق وغيرها علاجاً فعالاً لاضطرابات الجهاز الهضمي. ولكلّ ذلك لم أره طوال حياته قط قد ذهب إلى المستشفى لزكام أو صداع أو غيرها، إذ كان يقول: "الزكام والصداع تصيد الإنسان مواسم، مثل مواسم الزرع..!" فلا يستهوي المشفى ولايؤمنُ أو يعترف به. إنّها الخبرة العميقة المتجنبة للاستشارات الطبية (الواجبة) في زماننا الحاضر!

الاعتزاز بالصحة والعافية..
والإقبال على الحياة

عاش الوالدُ الحاج إبراهيم قمبر حياة صحية مفعمة بالأمل والنشاط والحيوية، فقد كان يعتز بصحتهِ ويؤمنُ بأنّها من الله عز وجل، وفي ذلك أذكرُ يومًا أن أحدهم وبعد عودتهِ من السفر أحضر لهُ (عكازاً) لكبر سنّه، فردّهُ عليه وقال: "شايفني شايب..!" فقد كان مؤمنًا بمنهجهِ وأسلوبهِ، شامخاً في شخصيتهِ، قويًا في ذاكرته، معتدل الجسم صلبَ البنية، ذات عضلات سليمة، فلم يشكُ من داء ولا علةٍ من علل هذا الزمان – كالضغط والسكري – إلا ما حلَّ به جبراً آخر حياته، ولهذا شهدَ له الأطباءُ المعالجون، بصحتهِ على رغم تقدمه في العمر..!

إنّ إقباله على الحياة كان منقطعَ النظير، متخذاً من البساطة وعدم الكلفة منهجاً للعيش بأسلوب (الطيبين)،

فقد ملك قلبًا شاباً، متفاعِلاً مع المتغيرات العمرانية والإلكترونية المتلاحقة بكل إيجابية، فقد كان سباقًا للتفاعل مع بيئته المتغيرة ومتطلباتها المستحدثة، فهو من أوائل من عمل تسريحة لشعره (تواليت)، كما أنه من أوائل من استخدم الملعقة والشوكة كسلوكٍ متأثراً فيها بثقافة الأكل لدى موظفي شركة نفط البحرين، وهو من أوائل من لبس البدلة و"النكتاي" ربطة العنق، كما يقول هو بلسانه رحمه الله.

ومن نافلة القول، إنّ الحاج إبرهيم - رحمه الله - كان قد جعل لهُ مزرعة صغيرة داخل منزله، تحوي: ست نخلات، وشجرة عنب، وتوت، ولوز و(بنبر) وإترج، إلا أنّ المتغيرات العمرانية، وتغير ظروف التربة، أدى لموت الكثير من الأشجار، دون النخيل التي بقت صامدة شامخة، وكان يأنس بها أيما استئناس، ويعتز ويوصي بها، ويذكرنا دائماً بحديث النبي (ص) في إكرام النخلة (وفق ما فهمهُ وسمعهُ مبتعدين عن التحقيق في أصل الحديثِ)، وكان يسمي الحديقة (جنته)، ويفخرُ بها، ويُدخل الضيوف لمشاهدتها، من شدّة حبه لها، وإذا اغتمَّ أو أراد النقاهة لجأ إليها، وشيّدَ في مزرعته لاحقاً (برستجًا) وبركة جانبية للسباحة كنافذة رائعةٍ لماضٍ جميل، يقضي أوقاته بالجلوس فيها.

لقد استهزأ الحاج إبراهيم بالعمر والشيخوخة حين لم يجعلهما عائقاً لتقدمه وأمله في الحياة والبقاء بصحة وعافية، يستقوي بها على طاعة الله سبحانهُ، وكان يقول دائما " كم وصل عمري؟! ثمانون.. تسعون، مائة.. الحمد لله هذانا بصحة وعافية".

وأذكرُ أنه كان يملكُ مِنظرة صغيرة، وعلبة صِبغ أسود يصبغُ بها ما ابيض من وجهه دائمًا؛ ليبقى قلبًا وقالبًا شاباً مليئاً بالحيوية والأمل والحياة، ناهيك أنه لم يترك رُوح الرياضة وثقافتها، إذ يمارسها كل صباح أو مساء بصور متعددة، فتارة بمشيه السريع المشتهر بها بطبيعته، إذ كان يهمُّ في مشيه لدرجة عدم مقدرتك على اللحاق به، وتارةً عن طريق تسلقه النخيل والأشجار، ومكابدته عناء تشذيبها وقطفِ ثمارها، وأحياناً بتقوية عضلاته بما يملكُ من حاجيات، كل ذلك رغبةً في الصحةِ وطمعاً في نيل فوائد الرياضةِ وحسناتها المعينة على البقاء.

القناعة.. وثقافة الاعتبار

مع حبه الإنساني الطبيعي للحياة وإقباله عليها، إلاّ أنه لم يكن ليستميت أو يلهث من أجلها، فهو الذي خبرها جيداً، كيف أفنت الأصدقاء والأحباب والأتراب، فكان يكفيهُ الكفاف، مبتعداً عن الإقبال "المذموم" تجاهها، وكان يعتبرُ مما آل إليه حال الكثيرين من الأثرياء ممن فنيت أعمارهم ولم يحملوا معهم شيئاً سوى أكفانهم، فيربي نفسه ويقصُّ على الأبناء أخبارهم؛ مما انعكس ذلك على أسلوبه في الحياة من المأكل والمشرب والملبس وغيرها، دون الغفلة عن انجذابه وميلانه الواقعي لأساليب الحياة القديمة التي ترعرع عليها. ومن عباراته المشهورة لدى أبنائه وأصحابه، والتي كان دائماً يرددها دائمًا: " أبو زيد معروفٍ بغير ثياب" كناية عن أنّ احترام الآخرين للشخص ليس مرتبطا بالملابس وجودتها أو نوعها، فبأخلاق المرء وكرمه وكفافه وعزته يستطيع أن يستوعب الجميع، ويجبر الجميع على احترامه وتقديره، امتثالاً للحديث الواردِ عن الرسول الأكرم (ص):

"إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، فسعوهم بأخلاقكم". كما كان يذكرنا دائماً بقصة الشيخ ميثم البحراني (كُل يا كمي)، كصورةٍ من صور الانحراف القيمي لدى بعض الأشخاص في المجتمع.

نظرته الاجتماعية وحبه للسفر

(يحبّ أصحابه)، هي أفضلُ عبارة يمكنُ أن تقال عنهُ كما عرفته، حيثُ كان مضيافاً بشوشاً، قد جمع في مجلسه أصدقاء من كل العوائل الطيبة بمختلفِ الأعمار، تعرّف الفقراء القريبين واهتمَّ لشؤونهم، وكانت من وصاياهُ الدائمة أن لا نردّ سائلاً عن بابٍ أبداً، ولوبالشيء القليل، ونبالغُ في إكرام السائل إن كانَ سيداً أو منتسبًا لسلالة آل محمد (عليهم السلام)، وكان مواسيًا لأصدقائه في مصابهم، مبتهجاً لهم في أفراحهم.

ويذكرُ لي رحمه الله قصة (حماية حدود المقبرة) من السرقة من قبل مقيدي الأراضي، حيثُ يقول: جاء مسؤولو التسجيل العقاري، ليعاينوا المقبرة ويضعوا حدودها، فقرروا عدم تسجيل القسم الشرقي منها لحساب المقبرة؛ وذلك لعدم وجود ما يدل على أنها جزء من المقبرة.. حاججناهم ورفضنا الأمر ثم قمنا في اليوم الآخر بتجهيز ما يبين أنّ فيها قبوراً، وهي القبور المعفية رسومها لعدم الدفنِ فيها لاحقًا، وأوضحنا شواهدها، وعندما قدموا من جديد ورأوها، جعلوا حدود المقبرة كما هو موضحٌ لكم اليوم.

من سافر معه لم ينسهُ ورغب العود ومرافقته، حيث كان (كثير المداعبة)، يُضحك ويعلق على نفسه أو من ألانَ لهُ جانبًا ومحبةً.

وأذكرُ أن سفرتهُ الأخيرة كانت مع رجالٍ يفصلُ بينه وبينهم عمراً طويلاً، وهم المرحوم الأستاذ إبراهيم حسين، وإبراهيم هلال، والأستاذ عبد الله ربيع، والذين ماتركوا زيارتهُ في مجلسه بعد عودتهم، فكان نعم المؤنس والصديق لهم في السفر.

أبناؤه وبناته

توفي الحاج إبراهيم بن أحمد بن يوسف بن قمبر مخلفاً وراءه 7 من الذكور هم (عبد الأمير - ومنه أخذ كنيته -، عبد الخالق وعبد الجليل، وعبد الإله، ومحمد علي، وعبد العزيز وجعفر)، و 9 من الإناث من أربع نساء كنّ على ذمته، ودون هذا العدد قد توفي لهُ مجموعة من الأطفال صغاراً، فكانوا كلّهم نواة أساسية في تكوين العائلة وإثراء عددها، ورسم ملامح حاضرها.

وفاته رحمه الله

ولأنّ الموت حقٌ، ومآل العمر إلى انقضاء استعداداً للانتقال إلى عالم أوسع، وحياة جديدة أرحب، هي مقدمة لحصاد العمل، واستشراف لمقامك ومستقبلك الأخروي، شاء اللهُ لذلك المشوار أن ينتهي، ولهذه المسيرة الكادحة أن تخبو، ويبقى وهجها وأثرها على أبنائه وأحفاده.

فقد أصيب في عام 2010م بنكسة صحية، أدخلناهُ على إثرها المستشفى، لنكتشف بعد الفحوصات المقطعية أنها نكسة شديدة ألمّت به، لازم بسببها المشفى حتى تعافى منها، ثم عاود النهوض والحركة مع استمرار العلاج الطبيعي، وظل عاما كاملاً متأثراً بها نسبياً، إلا أنه أصيب مرة أخرى في عام 2011م بصورة أكثر فتكاً وأشد وطأة على بدنه، كان لها أثرٌ بارز على حركته دون ذاكرته التي ظلت حتى الأيام الأخيرة قبل وفاته سليمة معافاة إلى أن فارق رحمه الله الحياة في الثالث عشر من شهر يوليو لعام 2012م، وافداً على أكرم الكرماء.

فرحمه الله برحمته، ورحم الله المؤمنين من أهل القرية، وأسكنهم فسيح جنانه، وحشرهُم مع محمد وآل محمد (ص)، والمؤمنين أجمعين.

وقفةٌ مع ماضي الأحبةْ

وأتذكرُ فيما أتذكرُ أني جلستُ مع أبي في صبيحةٍ قررتُ فيها أن أتعرف على بعضِ تراثهمْ من جهة، وأذكّره بأمجاده وماضيه من جهة أخرى، فأخذ يفتّش عن مثل هذه الكلمات في المجلدات المتراكمة على عقلهْ ..

فبدأنا بعونِ الله الحلقة الأولى حول السفينة ومكوناتها – لأنها كانت مصدر رزقهم:

الكلمة	معناها
الشوعي	سفينة عادية ذات شراع تستخدم للصيدْ، أكبرها سبعة أمتارْ، وأصغرها أربعة أمتارْ.
السمبوكْ	سفينة كسابقتها، لكنْ لها مقدمة ذات صدر ممدود للأمام يكون زاويه منفرجهْ.
الجالبوتْ	سفينة كسابقتها، لكن لها صدر ذات خشبة عمودية تكون زواية تسعينْ.
الهندامْ	صدر وواجهة السفينةْ.
البِيص	قاعدة السفينة.

الكلمة	معناها
السكّان	المُتحكمْ في حركة السفينة يمينا أو شمالاً أو دوراناً.
فنّةِ السدْ	السطحة في مقدمة السفينةْ، تخصص لستراحة البحارةْ.
لِخْرابْ	هو الحبل الذي يربطْ في الباورةْ والسن.
الجلّابْ	خشبْ مثبت في السفينة على شكل (نصف مستطيل مصغّر) يستخدمْ لنقل السفن المعطلّةْ - مثل نقل سيارة معطوبة بسيّارة سليمة.
الدرية (الزّانه)	هي أشبه ما تكون في أيامنا هذه بالمجدارْ الذي يصادُ به السمكْ ويكونُ بشكلٍ منح، ويختلف حجمهْ من الصغير للكبيرْ.
الفشتْ	جبال صغيرة تتكون داخل الماءْ، يتراوح ارتفاعها بين الثلاثة أمتارْ والمتر الواحد.
فنّة تفرْ	السطح في مؤخرة السفينة، يتخذها (محرّك السفينة) استراحة لهْ.
الخِنْ	مكان في سطح السفينة من الأمام مخصص لوضع الصورم فيه. (مثل الثلاجات المستديرة في أيامنا)
الصَورَمْ	هيّ أشبه ما تكون بـ (ثلاجات السمكِ المستديرة في أيامنا) والتي عادة ما تكّون من جريد النخيلْ، وتستخدم كما ذكر لوضع أسماك الصيد فيها.
الباوَرَةْ	هي المرساة المعروفة في أيامنا، حديدة شكلها كحرف T مقلوبْ، تربط فيها (السلسلة الحديدية) للإرساءْ.
الّسِنْ	حجرة مخروقةْ يربط فيها (الحبال - السلسة) لتوقف السفينة من الحراك أثناءْ الإرساءْ.

الكلمة	معناها
الدقلْ	خشبة مستديرة طويلةْ، تشبه في أيامنا العمود الحديدي، تثبت في سطح السفينة ليُربط فيها الشراعْ.
الجُوش	جزأ لا يتجزأ في الشراعْ، لهُ وظيفة المتحكّمْ في السرعة النسبية للسفينة.
الكوس	رياح تهّب على البحرين (البحارة) من الشرق تميل للشمالْ.
السهيلي	رياح تهبّ من الجنوبِ إلى الشمالْ.
البحري	رياح شمالية شرقية.

اللقاء الثاني: السكنُ قديماً، والمزارع وحاجياتها:

الكلمة	معناها
برستج	إحدى مسميات البيوت القديمة، ويصنع من السعف، كما أن البرستجْ يُسكن في الشتاءْ.
ليوان	المساحة التي تطل على جميع غرف المنزل ومرافقها، كالصالة في أيامنا الحاضرة.
بنكله	المجلس، الديوانية.
روزنه	فتحة صغيرة في الجدار، توضع فيها الحاجيات المختلفة، كالمشط، والإنارة.
سَجَم	السرير، أو الفرش.
جندله	عمود أسطواني خشبي يصنع به أسقف المنازل قديماً.
غضبه	المفتاح في وقتنا الراهن، ولكنه يصنع من خشب.

الكلمة	معناها
العريش	منزلْ يستخدم للصيف فقط، يصنع من سعف وجريد النخلْ على شكل مكعبْ.
الكرّازْ	إبريق ماءْ يستخدمْ في بيت الخلاءْ.
الدنجل (ثلاث نقاط تحت الجيم) وقيل الجندلْ.	وهو ما يستخدم لتسقيف المنازل لاحقًا، أمّا حديثاً فهي (مربعات خشبية، وأخيراً تم صنع قوالب إسمنت مستطيلة للتسقيف).
العرْجون	هي النخلة النحيفة جداً.
لِمْسَنْ	قطعةْ من الحجرْ الطبيعي المرتبة (ناعمة اللمس) تستخدمْ لحكّ حافّة المنجلْ ليكون أكثر بتراً وحِدّةْ.
العدك	رطب النخيلْ المشكّل كتل متجمعهْ.
السجْ	قالْ الوالدْ بأنّها كلمة غريبه، وأوّلها على أن القصد منها (السف وليس السجْ) وهو: فحال النخلةْ.
الكفير	قال أبي أنّ هناك روايتانْ لمعناها: الأولى: يقصد بها (الكثير) على لهجة الأوليين تحرّفتْ! هذي عادتهم. والثانية: (بالكاف وعليها ثلاث نقاط)، وهيّ أشبه ما تكون بالسلّة المصنوعةْ من خوص النخيلْ، والعهدة على الراوي.
أما الجربة	فهيّ عبارةْ عن كيس مصنوع من جلد الأغنام، الأبقار يستخدم لوضع الماء فيهْ، وعند أخواننا السنّة لخضّ الحليبْ!

الكلمة	معنها
البغلة، الشربة، الجحلة	هيّ جرّات (مختلفة الحجمْ) مصنوعة من الفخارْ، تستخدم لحفظ الماءْ، أما حديثاً فهيّ شبيهة بـ (مطّارات، ترامسْ، جيكاتْ).
مخضّه	جرّة متوسطة الحجم مصنوعة من الفخّارْ، تستخدم لخض الحليب وتحويله إلى روبْ.
البرستج	مصنوع من سعف النخيل، يُسكن في الشتاءْ.
السريدانْ	عبارة عن الفرن حالياً، وتصنع من الطين برتفاع منخفضْ، وتوضع قطع الحديد الصغيرة (صيخ حديدْ) على ذلك الجدار، ثمّ يوضع عليها إبريق الشاي مثلاً، وتشعل النّار تحته.
لتوالْ	هي عبارة عن منشفة تستخدمْ لتجفيف الجسم من الماء.
السِجْرة	هيّ عبارة عن دنجل مقطع قطع صغيره، توضع في طشت معدنْ ويضاف إليهل قليل من السعف اليابس وتشعل عليه النارْ، ويستخدم للتدفئة في فصل الشتاءْ، بختصار دفايه قديمة.
الكرْ أو كما يسمّى (الجر) ثلاث نقاط تحت الجيم	هو ما يستخدم لصعود النخلة، كما أنه يصنع من سفّةِ حبالِ النخيل (ليف النخلة)، وحديدة مرنة ليّنة حركيةْ، ويستخدم الأخيرْ لتسلق النخلة وجني الرطبْ

حكمُ الأجدادِ.. ثقافة ووعي

ولأن الأمثال أصالة الأجداد، وخلاصة الخبرات، أضعُ بين يدي القارئ الكريم الأمثال التراثية التي طرقت مسامعنا، أفسِّرها بأسلوب فصيح لتعمّ الفائدةْ، فهيّ حكمُ تليدة ربما أسست لمستقبل أكثرُ إشراقًا ونضوجًا:

1. اللي في القِدرْ يطلعه الملاّس:

القِدرُ هو إناءُ يطبخُ فيه الطعام، و"الملاّس" هو ملعقة كبيرة ذات ثقوبٍ يُخرج بها الإدام ويدعكُ بها الهريسُ لتليينه وتسويتهِ. ويقصدْ بهذا المثل أنّ مقدار أي شيء وقيمته لايمكنُ معرفتهُ إلاّ عندما يقع في المحَكِّ، وحينها تُعرف الحقيقة من الزّيف، فتسقط جميع الأقنعة والأبهرة المدّعاة قبلَ ذلكْ. فلا يمكنُ معرفة ثقافة إنسانٍ إلا بعدما يتحدّث، ولاتعرف قوة فارسٍ إلاّ في حربْ، ولنفس المعنى قيل: هذا الميدان يحميدان، وقيل أيضاً: الإناءُ بما فيه ينضحُ.

2. برَّزتِ الدواء قبل الفلعة:

يضربُ هذا المثلُ عندما يتقدم عمل مهم على أهمْ، أو خطوة قبل خطوة أهمَّ منها، فالفلعة هيّ الإصابة أو الحدث الذي يقع عندما يُرمى أحدهم بحجر قد تسببُ له جرحًا، فيعدُّ الدواء قبل وقوع الإصابة بالحجر!! وهذا المثلُ فيه دلالتان:

أ. أمَّا: ضرورة العمل وفق المعطياتْ، وعدم التسّرع في خطوات قد تكلفك وقتاً وجهداً مع عدم وقوع الحدث.

ب. أو: لضرورة الاستعدادْ لأي أمر طارئْ وبالتّالي التهيؤ جيداً لأي شيء متوقعْ.

والدلالتان صالحتان للأخذ بههما.

3. صبري ياحريقة سار لما يجيش ماي لحنينية:

لعلّ المسافة بين منطقة سار - قرية من قرى البحرين - والمنطقةُ التي ينبعُ فيها ماء الحنينية - منطقة في الرفاع - بعيدة، ولذا فإنّ استخدام هذا المثل يكون عندما يتأخّر ويتلكؤ أحدهم عن إنجاز عملٍ ما لأحدهم، فيوقّتُ لإنجازهِ بعدَ تجاوز ظروف معينة - ويكون في هذا التأخير نوع من التّهرّب -، فيستاء صاحب هذا العمل كثيراً حتّى لا يجد أمامه سبيلا إلا القول: صبري ياحريقة سار لما يجيش ماي لحنينية، تهكمًا وتسلية لنفسه، وفي الصبر والتسلية يقول الشاعر: سأصبر حتّى يعجز الصّبر عن صبري. أو قولهم: ياصبر أيوب على بلواه.

4. روح بعيد وتعال سالمْ:

وهذا المثل جميل جدّا، إذْ يريد أن يلفتنا إلى أنّ المسافة والوقت لايراعيان إذا تعدى الأمر لسلامة الإنسانْ، فعليك أن تختار إمّا أن تذهب من أقصر الطرق وترجع عليلا، أو أن تستهلك جهداً ووقتاً وتعود سالماً، وبلا شك فإنّ السلامة أهم بكثير من الجهد والوقتْ. فعليكَ في كلّ أمورك أن تكون حكيماً بارعاً في المسير لمسافات طويلة تستهلك وقتاً لكن ستعود سالماً.

5. رضينا بالهم والهم ما رضا بنا:

حكمة جميلة حقّا، فالهمّ مُرُ لايطاق، ولايمكنْ لأحد أن يتقبّله، ولكنْ بالرّغمِ من أنّا رضينا بالهمّ - كناية عن كثرة المصائب والمشاكل - وتقبّلناه، فهو لا يرضى بنا، من كثرة ما راودنا! ويقال هذا المثل من لسانٍ نخر جسمه الهمّ.

6. مد ارجولكْ على قد الحافكْ:

قيل: القناعة كنزُ لايفنى، ولذا فإنّ هذه الحكمة ترسّخ هذا المفهومْ، فإنْ كان لحافك - الغطاء المستخدم أثناء النّوم - قصيرًا، فعليكَ أنْ لا تمدد رجليكَ كثيراً، فالإنسان صاحب الدّخل المحدودْ عليه أن لايسرفْ ويشتري بصورة مبذرة لاتتجانس مع غمامة الفقر التي تحيط به! ولعلّ لهذه الحكمة مصاديق أخرى كأن يكون الإنسان ذا مستوى فكري دانٍ وتراه دائماً يريد أنْ يتصّدر الأحاديث والقيادة في المجالس العامّة والخاصّة، أو كأن يكون ذا مستوى جمال متواضع وتراه يتمرّد على طبيعته بوضع المكاييج

والكريماتْ والزيوتات والألوان التي تغيّر من حاله !! ولهذا يقال له: مد ارجولكْ على قد الحافكْ. لكن مع ذلك يجبُ أن لا نقتل الطموح داخلنا، وعلينا السعيّ والأخذ بالأسباب.

7. اللي يمبي السَّح مايقول أحْ:

لعلّ هذه الحكمة هيّ مصداق لأختها الحكمة الأخرى: "اللي يمبي شي يعيف شي"، فالسَّح كما ورد في معجم لسان العرب هو "سمانُ الشاة والبقر"، ويمكنُ إطلاقه على كلِّ شيء سمن، فهو ذلك الهدف الكبيرْ - الذي يطمحُ في تحقيقه، والـ أح كناية عن الألم والمعاناةْ والشّدة، فهي الغيظ وحرارة الهمِّ. فالذي يرغب في تحقيق هدف كبيرٍ عليه أن يصبر ولايتأوّه أو يتذمّر، بل عليه أن يجدّ ويجتهد في تحقيق هدفه - فمن جدّ وجد ومن زرع حصد ومن سار على الدّرب وصل.

8. اتبيع خبزك على خباز:

عادة مايكون الصّانعْ خبيراً بصنعته، يعرفُ سلبياتها وإيجابياتها، ومداخلها ومخارجها وحيثياتها، وبالتّالي فإنّ هذا المثل يضربُ عندما يريدُ أحدهمْ أنْ يخادعَ إنسانًا - في بيع أو مبادلة أو تسويق - مادة أو فكراً مغشوشا ظاهره الجودة وباطنه الفسادْ، فيجيبهُ الطّرف المقابل: "اتبيع خبزك على خبّاز"، استهزاءً وإعلامًا لهُ بما خلف ستارها، أي: تريد أن تخدعني، وأنا أعْرَفُ وأعلمُ - كما تعلمُ أنتَ - بالذي تعطيني إيّاه!

9. إذا طاح الجمل كثرت سكاكينه:

الجمل كحيوان معروف عنه الضخامة والمهابة وصعوبة الانقياد، وكما تعارف عند بعض ممتهني رعي الجمل أنّ الجمل حيوان إذا غضب وثار على أحدهم فإنّه لاينسى، ويثأر ولو بعدَ حينْ، ولذا فإنّ الجمل مادامَ حيّا ترى الجميع يهابه، ولكنْ إذا سقطَ على الأرض لأي عذر كمرضٍ أو ضعفٍ استغلّ من يهابهُ - أثناء قوته - هذه الفرصةْ ليغرسوا سكاكينهم من كلّ حدب وصوب، استغلالاً للموقف، حيثُ يظهر الأعداء الحقيقيون له! ويضرب هذا المثل لأيْ إنسان ذات مهابة وسلطة أو بطش وقوة، كان يهابُ مادام رأسه شامخًا، وبدنه سليمًا، وفكرهُ وقاداً، فإذا اعتلّ حيكت المؤامرات عليه، وصنع المتصيّدون في الماء العكر شباكهم

ليلَ نهارْ، وأصغر أمر وأصعب وطأة وأشد إيلامًا يقعُ فيه الشماتة!!

10. الدواء في أخس الشجر:

حكمة رائعة جدّاً، فأخسّ الأشجار هيّ (التي لافائدة ظاهريه يُترجّى منها، تحوطها الأشواكْ والعقباتْ)، وبالرّغم من ذلكَ تجد أنّ فيها فائدة وسطَ لبّها أو جذورها!، وليس غريباً أبداً عندما نسمعْ أنّ شفاءَ المرضِ الفلاني موجودُ في مصرانِ أفعى! أو شيء من هذا القبيلْ، وقيل في ذلكَ أيضاً: إنّ الدواء المُرَ يكونُ أنجعُ وأشفى من الدواء الطّيب، فلا استحقار لشيء فلربما كان العلاجُ فيه.

تمّ بعون الله

السادس من شهر رمضان لعام 1438هـ

الموافق لـ 1 يونيو 2017م